﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص: 65 - 67]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

لما كان النِّداءُ الأوَّلُ عن سؤالِ التَّوحيدِ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أتبعه بالنّداء الثّاني وفيه إثباتُ النُّبوّاتِ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1]، فالنّاسُ يُسألونَ عن إيمانِهم بالرُّسلِ، كما يُسألونَ عن التَّوحيدِ[2].

توبيخُ المشركين على تكذيبهم لرسلهم بعد توبيخهم على إشراكهم

لمّا أشارَ إلى أنَّه لا نَجاةَ مِن الرَّدَى يوم القيامة إلّا بالهُدى بقوله ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾؛ أتْبَعَه الإعلامَ بأنَّ الله لا يُمَكِّنُ أحدًا يوم القيامة أن يَفعَلَ ما قد يَروجُ على سائلِه، كما يُفعَلُ في هذه الدّارِ مِن إظهارِ ما لم يكُنْ، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3].

سؤالُ الله للمشركين عن حالهم مع رسلهم تفضيحًا لهم

لمّا عُلِمَ بما سبق من آيات حالُ مَن أصَرَّ على كُفْرِه وعَمِلَ سَيِّئًا وما يَجري عليهم مِنَ التَّوبيخِ بطَريقِ العِبارةِ، وأُشيرَ بها إلى حالِ مَن تاب فوُعِدَ الوعدَ الحسَنَ بألطَفِ إشارة؛ تَسَبَّبَ عن ذلك: التشَوُّفُ إلى التَّصريحِ بحالِهم فذكرهم ترغيبًا في التَّوبةِ، وزجرًا عن الثَّباتِ على الكفرِ فقال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[4].

في التّصريح بحال المؤمنين وحال الكافرين ترغيبٌ في التَّوبةِ، وزجرٌ عن الكفر

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَعَمِيَتْ﴾: (عمي) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى سَتْرٍ وتَغْطِيَةٍ[5]،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 250.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة القصص، ص: 294.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 336.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/ 25، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 338.
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عمي).

والعَمى: ذهابُ البصرِ، ويُطلَق على فَقْدِ البَصيرَة، يُقال: عَميَ فُلانٌ، أيْ: ضَلَّ عن رُشْدِه، وعَميَ عليه الأمر، إذا التبس، وعَميَ عليه طريقُهُ أيْ: خَفيَ، ورجلٌ عَمي القلْب، أي جاهلٌ[1]. والمقصود بالعمى في الآية: الخفاءُ والسّتر، والمعنى: خَفيتْ عليهم الحُجَجُ خفاءَ المرئيّ على الأعمى[2]، فعمى الحججِ عنهم هو فقدانها وعدم وجودها.

2) ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾: أصلُ (نبأ) الإتيانُ من مكانٍ إلى مَكانٍ، ومنه النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّهُ يأتي مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ[3]، والنَّبأ: خبرٌ ذو فائدة عظيمة يحصلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنّ، ولا يُقال للخبر في الأصل نَبَأٌ حتى يتضمّن هذه الأشياء الثّلاثة[4]. ومعنى ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ في الآية: الحُجَجُ أو الأخبار المنجية في الجواب[5].

3) ﴿تَابَ﴾: أصلُ (توب) يدلُّ على الرُّجوعِ، يُقال: تابَ إلى اللّهِ، يَتوبُ، تَوْبًا وتَوْبةً ومَتابًا، أيْ: أنابَ ورَجَعَ عن المَعْصيةِ إلى الطَّاعَةِ[6]. ومن معاني التَّوبة: الإسْلامُ، يُقال: أدْرَكَ فلانٌ زَمَنَ التَّوْبَةِ[7]، والاستِحياءُ، يُقال: ما طعامُكَ بطَعامِ تَوْبةٍ، أي لا يُستَحيى منه ولا يُحْتَشَمُ[8]. ومعنى ﴿تَابَ﴾ في الآية: أنابَ وراجع الحقّ وأقلع عن الشِّركِ مع النَّدم على تقلُّده[9].

4) ﴿ٱلْمُفْلِحِينَ﴾: أصلُ (فلح): يَدُلُّ على فَوْزٍ وبَقاءٍ، والفَلاحُ: الفوز، والنَّجاة، والبَقاء، والسَّحورُ، وسُمّيَ السحور فَلاحًا؛ لِأنَّ الإنْسانَ تَبْقَى مَعَهُ قوَّتُهُ عَلَى الصَّوْم[10]. والفَلاحُ: نَيْلُ الخَيْر والنّفع الباقي أثَره، وهو أيضًا: النَّجاحُ بِحُصولِ المَطْلوبِ، والخَيْبَةُ ضِدُّهُ، يُقال: أفْلَحَ وأنْجَحَ إذا أدْرك مَطْلوبَه، ومِنْه حَيَّ على الفلاح[11]. والمقصود بالفَلاحِ في الآيةِ: الفَوْزُ والنَّجاةُ بالمطلوب وصلاحُ الحالِ[12].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عمي).
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1797.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّبيدي، تاج العروس: (نبأ).
(4) الراغب، المفردات: (نبأ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 607، وابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 268، والجلالين، تفسير الجلالين، ص: 517.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/ 530، وابن فارس، مقاييس اللغة: (توب)، والسجستاني، غريب القرآن، ص: 419.
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة: (توب).
(8) الخليل، العين: (توب).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 608، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 163.
(10) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح).
(11) ابن دريد، جمهرة اللغة: (فلح)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 211.
(12) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 608.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّوبةُ والإيمانُ والعملُ الصّالحُ أسبابٌ للنّجاة من الكَرب الشّديد

واذكُرْ يومَ يُنادي اللّهُ تعالى المُشركينَ يومَ القيامةِ، فيَقولُ لهم: ماذا أجَبْتُمُ المُرسَلينَ الَّذين أرسَلْتُهم إليكم؟ هل آمَنْتُم بهم واتَّبَعْتُموهم، أو كفَرْتُم بهم وكذَّبْتُموهم ولم تُطيعوهم؟ فخَفيَت الحُجَجُ على المُشركينَ يومَ القيامةِ، ولم يَهتَدوا إلى جوابٍ؛ لأنّ اللّهَ قد كانَ أبلغَ إليهم في المعذرةِ، فلم تكن لهم حجةٌ يحتجّون بها، ولا خبرٌ يُخبِرون به، مما تكون لهم به نجاة، فيَسكُتون حَيارَى لا يَقدِرونَ على الإجابةِ بشَيءٍ، فلا يَسألونَ أحدًا عمّا يُجيبونَ به.

وفي الوقتِ الذي يبلغُ الكرْبُ ذروتَه بالمشركين يتحدثُ القرآنُ بما يكون فيه سبيلٌ للنّجاة في الحياة الدّنيا، فيقول: فأمّا مَن تاب مِنَ الشِّركِ، وآمَنَ باللّهِ ورُسُلِه، وعَمِلَ عَمَلًا صالحًا بإخلاصٍ للّه تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ فإنَّه يكونُ في الآخرةِ مِنَ الفائزينَ النّاجينَ مِن العَذابِ، الخالدينَ في الجنَّةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾:

في الجمع بين سؤالِ الكفّار عن حقّ اللّه وحقِّ رسله بلوغُ الغايةِ في الحجّة عليهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمْ﴾ عاطفة، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[2]، وفي هذا العطف جمعٌ بين سؤالِ الكفار عن حقّ اللّه في توحيده، وبين سؤالهم عن حقِّ رُسلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ في إجابة دعوتهم؛ إقامةً للحجّة عليهم.

موقع الظرف (يوم):

(يَوْمَ) في قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ إمّا منصوبٌ بالعطف على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 607، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 304، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 250.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 183، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 309.

يـــومٌ عـظـيـمٌ مهولٌ يُنادى فيه على الكافرين لـسـؤالـهـم وحسابهم

(يوم) في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ أو بإضمارِ: اذكُر[1]، والتَّقديرُ: (واذكرْ أيّها العاقل حالَ هؤلاء الكافرين يوم يناديهم المنادي من قِبَل الله، فيقول لهم: ما الذي أجبتم به رسلَكم عند ما أمروكم بإخلاصِ العبادة لله، ونَهَوْكم عن الإشراك والكفر؟)[2].

وإضافة (يوم) إلى جملة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ فيه تهويلٌ وتفظيعٌ وتقريعٌ؛ إذ اليومُ هو يومُ الحسابِ والفصلِ بين العباد، والسؤالِ عن التّوحيد وإجابة.

سرّ التعبير بالنّداء ﴿يُنَادِيهِمْ﴾:

نـداءٌ ينبئُ عن البعدِ ويحملُ التّبكيت والتّخويف

عبّر البيانُ القرآني بلفظ النّداء في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ لكونه أنسبَ مع السّياق الذي هو إقامةُ الحجّة عليهم تقريعًا وتبكيتًا وتخويفًا؛ إذ النّداءُ هو رفعُ الصوتِ صياحًا؛ ليلتفتَ أو ليحضرَ عند المنادي، فلا يكون النّداءُ إلا برفع الصّوت، وهذا يزيدُ من خوفهم وفزعهم. كما يشيرُ إلى بُعدِ منزلتهم في النّار حتى احتاجوا إلى النّداء بصوتٍ عالٍ ليتجمّعوا ويُسْألوا[3].

تصويرٌ لمشهدٍ مهيبٍ مخيفٍ يسجّل على الكافرين ذلّهم

وقد أتى فعل النّداء بصيغة المضارع ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ لإفادة التّصوير، أي تصوير لحظة مناداتهم بصوتٍ عالٍ يقرِّعهم ويبعثُ الخوفَ في قلوبهم، ليتخيّلَ السّامعُ هذا المشهد المهيب، حين يوجَّهُ إليهم السّؤال، ويُطلبُ منهم الإجابة، وهم في قِمَّة الذلّ والخزي.

مرجع ضمير الفاعل والمفعول في ﴿يُنَادِيهِمْ﴾:

في إضمار الفاعل والمفعول تحقيرٌ لشأنِ المشركين

هذا النّداء كالنّداء الأوّل ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ في كونه من الله، أو في احتماله الواسطة من الملائكة[4]، والمنادَوْنَ

(1) تفسير الجلالين، ص: 517.
(2) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 429.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ندى).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 319.

هم الكفارُ جميعًا من الأتباع والمتبوعين، يوقِفُهم على ما أجابوا به المرسلين الذين دعوهم إلى الله تعالى، فتعمى عليهم الأنباء[1]. وقد أضمرَ النّظم الحكيم الفاعلَ والمفعولَ تحقيرًا لشأن المشركين، فهم أدنى من أنْ يُصرّح بمن يناديهم، سواءٌ كان الله سبحانه أو ملائكته، وهم أحقرُ من أنْ يُذكروا.

دلالة تكرار ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾:

تكرارٌ يقتضيه مقامُ تقريعِ الكافرين وتخويفهم يوم القيامة

جملةُ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ كنايةٌ عن موصوف، وهو يوم القيامة، وهو ذاته ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ وقد كُرِّرَ الحديث عنه باعتبارِ تعدُّدِ ما يَقَعُ فيه؛ لأنَّ مَقامَ المَوعظةِ يَقتَضي الإطْنابَ في تَعْدادِ ما يُستحَقُّ به التَّوبيخُ، وقد كُرِّرَت جملةُ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ لأنَّ التَّكرارَ من مقتضيات مقامِ الموعظة والتّخويفِ، والتّهويلِ لهذا اليوم العظيم. والغرضُ من كلّ هذه النّداءات تقريعُهم والسّخريةُ منهم، وممَّنْ عبدوهم واتّبعوهم من دون الله[2]، وتَوْبيخُهم على تَكْذيبِهم الرُّسُلَ بعدَ انقضاءِ تَوبيخِهم على الإشْراكِ باللهِ[3].

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ﴾:

التّشوّف إلى تفصيل بعد الإجمال يحملُ التّبكيتَ والتّنديم

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ﴾ حرفُ عطفٍ وتفسيرٍ، والجملةُ بعدها تفصيلٌ وتفسيرٌ بعدَ إجمالٍ؛ تبكيتًا لهم وتنديمًا؛ فقد أجملَ النّداءَ، ثمّ فَصَّلَهُ بما بعده بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

دلالة القول والمضارعة في الفعل ﴿فَيَقُولُ﴾:

في التّعبير بالقول ﴿فَيَقُولُ﴾ زيادةٌ في التّوبيخ والتّفضيح

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 295.
(2) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 10989.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 162.

للكافرين[1] على عدمِ إجابتهم الرّسلَ بحقٍّ، بل أسلفوا من التّكذيب والإساءة ما يودّون لو أنّ بينهم وبينه أمدًا بعيدًا[2]. وفيه كذلك تأكيدٌ على أهميّة مقول القول، والذي هو استفهام توبيخٍ وتقريع وتأنيبٍ لتكذيبهم الرّسل؛ لأنّ ﴿فَيَقُولُ﴾ تكرارٌ قُصد به تفسيرُ النّداء.

في التّعبير بالقول زيادةُ توبيخٍ وتفضيحٍ للكافرين

ومجيء فعل القول بصيغة المضارعة تناسبًا مع فعل ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ الذي هو تفسير له، وتصويرًا لهذا الحدث الذي يُنادي فيه المشركين ويخاطبهم بسؤالٍ توبيخيّ وتقريعيّ وتنديديٍّ ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ﴾ "؟! مما يُعزّز الأثرَ النّفسيَّ في نفوس المخاطبين دفعًا لهم للإيمان.

تصويرٌ لحدث عظيم يُعزّز الأثر النّفسي في قلوب المخاطبين دفعًا لهم على الإيمان

معنى (ما) و(ذا) في قوله ﴿مَاذَآ﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ﴾ استفهاميَّةٌ في محلّ مفعول، والمعنى: أيَّ اجابةٍ أجبتم المرسلين، و(ذا) بعد (ما) الاستفهامية في قوله ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ﴾ تعاملُ معاملةَ الموصول، أي ما الذي أجبتم المرسلين، أي ما جوابكم[3]؟.

في الاستفهام عن كلّ الذي أجابوا به المرسلين مزيدُ تبكيتٍ لهم

و﴿مَاذَآ﴾ أفادتْ عموم السّؤال، فبدلًا من أنْ يقول: أي إجابةٍ أجبتم المرسلين؟ أإجابةُ إيمانٍ وإقرار أم إجابةُ كفرٍ واستكبار؟ أإجابةُ طاعةٍ أم إجابةُ معصية؟ وهكذا، فأوجز هذا الكلام كلّه في لفظ ﴿مَاذَآ﴾، وهو استفهامُ تقريرٍ وتوبيخٍ وتبكيتٍ للكافرين، وإقامةُ الحجة عليهم.

سرّ التعبير بالإجابة في ﴿أَجَبْتُمُ﴾:

التّعبيرُ بالإجابة دون الطّاعة في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ لكونها أنسبَ لحالِ المخاطبين، وهم الكافرون من أهلِ الموقف؛ وأنسبَ للسّياق الذي هو توبيخٌ وتقريعٌ لهؤلاء الكافرين

السؤالُ عن إجابةِ المرسلين أنسبُ لحالِ الكافرين يوم القيامة

(1) أبو السّعود إرشاد العقل السّليم: 5/ 108.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 337.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 162.

بسؤالهم عن إجابتهم للمرسلين يوم القيامة، وهل كانت بالموافقة أم بالمخالفة؛ لأنّ الإجابة قد تكون بالموافقة وقد تكون بالمخالفة[1]، وأمّا الطّاعة والانقياد فلا تكون إلا بعد الموافقة، أي فلا يصحّ أنْ يسألهم عن طاعتهم؛ لأنّهم ليسوا بمؤمنين.

غرض الاستفهام ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمْ﴾:

الاستفهامُ في الآية مثلٌ للإيجاز في اللفظ والوفاء في المعنى

الاستِفهامُ بـ﴿مَاذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمْ﴾ صوريٌّ؛ لأنّ اللّهَ يعلمُ ماذا أجابوا المرسلين، مَقْصودٌ منه إظْهارُ بَلْبَلَتِهم واضطرابهم[2]. وهو استفهامُ تقريرٍ لهم بموقفهم من دعواتِ الرّسل، أي بكفرهم وذنوبهم؛ تحسيرًا لهم بعد تحسيرٍ. واستفهامُ هيبةٍ؛ فلا يَبْقَى لهم تمييزٌ، ولا قوةُ عقلٍ، ولا مُكْنَةُ جوابٍ، قال جلّ ذكره: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾[3]. واستفهامُ تبكيتٍ بالاحتجاجِ عليهم بإرسالِ الرّسل، وإزاحة العلل[4]. واستفهامُ تعجيزٍ لهم؛ لأنهّم إنْ حاولوا الإجابة فلن يجدوا إجابةً فيُخزون ويخجلون[5].

دلالة جمع ضمير الفاعل في ﴿أَجَبْتُمْ﴾:

المبالغةُ في بيانِ عجز المشركين وتبكيتِهم وإقامةِ الحجّةِ عليهم

التّعبير بضمير الجمع في ﴿أَجَبْتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ ليشملَ السّؤالُ جميع المشركين؛ إذ المقامُ مقامُ حسابٍ وجزاء، ولقصدِ المبالغة في بيان عجزهم وتبكيتهم وإقامةِ الحجّة عليهم، وأنّ العجزَ يشملهم كلّهم، وخاصّةً أنّ السّياق جاء بخطابِ الجمع على سبيلِ التّوبيخ والتّقريع.

نكتة حذف متعلّق ﴿أَجَبْتُمْ﴾:

في الحذفِ إيجازٌ واختصارٌ للعلم بالمحذوف

حُذفَ متعلّق ﴿أَجَبْتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 51.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 162.
(3) القشيّريّ، لطائف الإشارات: 3/ 76.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 427.
(5) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 10989.

اختصارًا؛ للعلم به؛ لأنّه قد دلّ عليه ما سبق في قوله ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، وقوله ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾، والتّقدير: (ماذا أجبتم المرسلين في الدّعوةِ إلى توحيد الله وإخلاصِ العبادة له، وإبطالِ الشّركاء)[1].

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

التّكذيبُ برسولٍ تكذيبٌ بجميع الرُّسل لاتّحادِ المرسِل

المرادُ بالمرسلين في قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ محمدٌ ﷺ، وله نظائر في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ [سبأ: 45] وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: 105]، وإنّما كذَّب كلُّ فريقٍ من أولئك رسولًا واحدًا، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ عبّر بصيغة الجمع؛ لأنّ جميع المكذِّبين إنّما كَذَّبوا رُسلَهم بعلّةِ استحالةِ رسالةِ البشرِ إلى البشرِ، فهم إنّما كَذَّبوا في الحقيقة بجنسِ المرسلين[2].

دلالة التّعبير بالإرسال دون النبوّة في ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

النّعيُ على تكذيبِ المشركين للرّسول ورسالته مبالغةٌ في التّشنيعِ عليهم

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالإرسال ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دون النّبوة، فلم يقل: (ماذا أجبتم النّبيين)؛ لكون لفظ المرسلين أبلغَ في الدّلالة على إقامةِ الحُجَّة على المخاطبين من المشركين؛ لأنّه أرسلَ مع المرسلين رسالات، قد بَلَّغها الرّسلُ، وبقيت بعد موتهم، بخلافِ لفظ النّبيين، فإنّه لا يدلّ على حملِ رسالة، ومن ثَمَّ فهو أبلغُ في تبكيتهم والتّشنيع عليهم؛ إذ إنّهم لم يكتفوا بتكذيب المرسلين، وإنّما كذّبوا رسالاتهم، فماذا سيكون جوابهم؟!.

التّكذيبُ بالمرسَل تكذيبٌ بمن أرسله

وأما إيثار صيغة المفعول في ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ فللدّلالة على أنّهم مجرّدُ رسلٍ يبلّغون عن الله ما أمرهم به لا من عند أنفسهم، ولا مندوحةَ لهم عن إبلاغِ ما أُمروا به[3]، أي إعلانٌ بأهليّة دعوتِهم ومصدرها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 162.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 162.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 62.

بأنّهم من عند الله[1]؛ إذ لفظُ المُرسَل يقتضي إطلاقَ غيره له، فكأنّه يسألهم - زيادةً في تبكيتهم - ماذا أجبتم دعوة الله؟.

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَعَمِيَتۡ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وقد أفادَ العطفُ التّعقيبَ والسّرعةَ في عمائهم عن الحججِ والأعذار، وإظلامها عليهم؛ لشدّة تحيّرهم ودهشتهم واضطرابهم وذهولهم في هذا الموقف المهول، فلا نُطْقَ ولا عقلَ ولا تمييز ولا فهم لهم، فلم يملكوا إلا السّكوت.

سرعةُ عمائهم عن الحُجَجِ والأعذارِ تُظهرُ شدّةَ تحيّرهم ودهشتهم

دلالة التّعبير بالعَمَى في الفعل ﴿فَعَمِيَتۡ﴾:

معنى لفظ ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾ خفيتْ عليهم واشتبهتْ عليهم، وقد آثر البيانُ القرآنيّ لفظ العمى دون الخفاء مثلًا؛ لكونه أنسبَ لحالِ المشركين يوم القيامة، وما يصيبهم من الحيرة، والعجز عن الجواب؛ إذ لم يجدوا مغالطةً كما في السّؤال السّابق؛ أي فُقدتْ حُجَجُهم وأعذارُهم، فإنّ العمى أشدّ وأبلغ من الخفاء؛ إذ هو مأخوذٌ من عمى البصر، أي فقدان القدرة على الرّؤية في العينين معًا، بما يجعل صاحبه لا يتبيّن الأشياء، وهو في أصله وصفٌ لحالةِ الشخص[2]، وهو كذلك يُستعملُ في افتقادِ البصرِ والبَصيرة[3]. والتّعبير به يلقي ظِلَّ العمى على المشهدِ والحركة، وكأنّما الأنباءُ عمياءُ لا تصلُ إليهم، وهم لا يعلمون شيئًا عن أيّ شيءٍ!، ولا يملكون سؤالًا ولا جوابًا، وهم في ذهولهم صامتون ساكتون.

عمى الحُجَجِ والأعذار عن المشركين هو فُقدانها لعدمِ وجودها

نكتة التّعبير بالماضي في ﴿فَعَمِيَتۡ﴾:

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿فَعَمِيَتۡ﴾ بصيغة الماضي - برغم

عماءُ الحجج عن المشركين أمرٌ متيقّنٌ لا شكَّ فيه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 61.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمي).
(3) الرّاغب، المفردات: (عمى).

أنه فعلٌ لَمّا يقع بعد -؛ للدّلالة على تحقّق وقوعه، وأنّه يقينٌ لا شكَّ فيه، والماضي من الأفعال متيقنٌ؛ فلذلك توضعُ صيغته بدل المستقبل المُتَيَقِّنِ وقوعه وصحّته[1]، فقد استولتْ عليهم الحَيْرَةُ، واستمكن منهم الدّهشُ؛ فلا نُطْقَ ولا عقلَ ولا تمييز ولا فهم[2]. وفي تأكيد تحقّق الوقوع مزيدُ تخويفٍ وتحذيرٍ لهم؛ ليتّعظوا ويستدركوا قبل فوات الأوان.

دلالة إسناد الفعل (عمي) إلى ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾:

في نسبةِ العمى إلى الأنباءِ مبالغةٌ في بيانِ ضلال المشركين عن أيّ جواب

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعل (عمي) إلى الأنباء، فقال: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾، ولم يقل: (فعَموا عن الأنباءِ)، رغم أنّه أصلُ الكلام، أي لم يهتدوا إليها، وفيه استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ؛ حيث استُعير العمى لعدمِ الاهتداء ثم قُلِب؛ للمبالغةِ في بيان ذهولهم وصَمْتِهم المُطْبِق في ذلك اليوم العسير، حتى لكأنّما الأنباءُ والأخبارُ عمياءُ لا تصلُ إليهم، ولا تعرفُ شيئًا عنهم[3]! وبيانُ ذلك أنّه لمّا جعلَ الأنباءَ الواردة عليهم من الخارج عُميًا لا تهتدي، دلّ على أنّهم عميٌ لا يهتدون بالطّريق الأولى؛ لأنّ اهتداءهم بها، فإذا كانت هي في نفسها لا تهتدي فما بالك بمن يهتدي بها؟![4]، وللتّنبيه على أنَّ ما يَحْضُرُ الذِّهْنَ يفيضُ عليه، ويَصِلُ إليه مِنْ خارجٍ، فإذا أخْطَأه لم يَكُنْ له حيلةٌ إلى اسْتِحضارِه[5].

سرّ تعدية الفعلِ (عمي) بـ(على):

تمكّنُ عمى الأنباءِ من المشركين جعلهم لا يهتدون إلى جواب

عُدِّيَ الفعلُ (عمي) بحرف (على) في قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾؛ لتضمُّنِ فعل (عمي) معنى الخفاء والاشْتِباه،

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 295، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 320.
(2) القشيّريّ، لطائف الإشارات: 3/ 76.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 429.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 309.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

ولولاه لتعدّى بـ(عن)[1]، والمعنى: خفيتْ عليهم الأنباءُ ولم يهتدوا إلى جواب، وذلك من الحيرة والهول[2]. أو أنّ في التّعبير بهذا الحرف - الذي يفيد الاستعلاء - بدل (عن) إشارةً إلى أنَّ عمى الأنباء وقعَ عليهم، فعمَّ الكلَّ العمى، فصاروا بحيث لا تهتدي الأنباء لعماها إليهم لتجدّدها، ولا يهتدون إليها لانتشار عماها إليهم، وهذا كلّه إشارةٌ إلى أنّهم لم يقدّموا عملًا في إجابة الرّسل بحقّ أنْ يذكر في ذلك اليوم، بل أسلفوا من التّكذيب والإساءة ما يودّون لو أنّ بينهم وبينه أمدًا بعيدًا[3].

نكتة تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾:

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ اختصاصَهم بهذا العماء، أي عميتْ عليهم الأنباءُ دون غيرهم، فهُمُ الذين أصيبوا بالعمى عن إدراكها وفهمها. كما أفادَ التّقديم لفتَ انتباه السامعين إليهم، والتّشويقَ لمعرفة المؤخَّر، وهو ما الذي عمي عليهم.

لفتُ انتباه السّامعين إلى اختصاصِ العمى بالمشركين

دلالة التّعبير بـ ﴿ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ دون (الأخبار):

عبّرَ النَّظمُ الحكيمُ بلفظِ بـ﴿ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ دون (الأخبار) في قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾؛ لكونها أخبارًا عن أمرٍ مهمّ، وهي "الأخبار التي هي من العظمة بحيث يحقّ لها في ذلك اليوم أنْ تُذكر، وهي التي يمكن أنْ تقع بها النّجاة"[4] - حسب زعمهم -، وهي الجوابُ عن سؤال ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، أي عمّا وقع من المشركين مع رسلهم في الدّنيا، وهم لا يستطيعون في هذا المقام أنْ يكذبوا فيه؛ إذ لم يعدْ هناك مغالطةٌ في الحجج والأعذار، في الموقف المهول

الحُجَجُ التي يكون بها الخلاص يوم القيامة لا تكون إلا عظيمة وقد عميت عليهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 309.
(2) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 429.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 337.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 337.

يوم القيامة. فالنبأُ في اللغة هو "خَبَرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علم أو غلبة ظنّ، ولا يُقال للخبر في الأصل نبأٌ حتى يتضمّن هذه الأشياء الثلاثة" ويكون صادقا[1].

لطيفة جمع ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾:

في مقام تَعْميَةِ الأنبـاء على المشركين مزيدُ تيئيسٍ وتحسيرٍ لهم

المرادُ بالأنباءِ إمّا ما طُلِب منهم ممّا أجابوا به الرُّسلَ، أو جميعُ الأنباءِ، وهي داخلةٌ فيه دخولًا أوّليًّا[2]، وفي جمعها إشارةٌ إلى تعظيم أمرها وشأنها، وإلى بيانِ شدّةِ دهشتهم وحيرتهم وعجزهم، فقد خفيتْ والتبستْ عليهم جميعُ الأنباء، ولم يذكروا أيًّا منها، وفي هذا مزيدُ تيئيسٍ وتحسيرٍ لهم.

نكتة الإطناب بذكر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾:

في التّخويف من اليوم المهول العظيم ردعٌ للمشركين عن شركهم وتكذيبهم

أطنب البيانُ القرآنيُّ بذكر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾، مع أنّه مفهومٌ من السّياق أنّ عماءَ الأنباء عليهم يكون يوم القيامة؛ إذ التّقدير: فعميتْ عليهم الأنباءُ يوم إذ نودوا وقيل لهم ماذا أجبتم المرسلين[3]، ولكنّه كرّره تخويفًا من ذلك اليوم، وتقريرًا لتهويله وتعظيمه وتبجيله[4]، بهدفِ ردع المخاطبين عن كفرهم، ليستدركوا قبل فوات الأوان.

غرض إضافة (يوم) إلى (إذٍ) والتعبير به:

إضافةٌ تنبئُ عن تخويفٍ وتحذيرٍ للمشركين من اليوم العظيم والموقف المهول

(يوم) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفٌ أضيف إلى مثله (إذٍ)، والتّنوين فيه ينبئُ عن مضافٍ إليه يدلُّ عليه السّياق، والتّقديرُ: (فعَميَت عليهم الأنباء يومئذ نودوا وقيل لهم ماذا أجبتم المرسلين)، وغرضُ هذه الإضافة بيانُ أنّ العماء عن الحجج والأعذار وفقدانها

(1) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 364.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 337.

والتزام السّكوت المطبق - يكون يوم يناديهم الله، ويسألهم سؤالَ التّبكيت والتّوبيخ بقوله: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. وفي ذلك تخويفٌ وإنذارٌ شديدانِ من هذا اليوم العظيم والموقف المهول، بما يكون رادعًا لهم عن شركهم بالله.

معنى (الفاء) في قوله ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ تفريعيّةٌ[1]، والجملة بعدها تفريعٌ على ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي لا يسألُ بعضهم بعضًا لاستخراج الآراء والحجج، وذلك من شدة البَهْتِ والبَغْتِ على الجميع أنّهم لا مُتَنَصَّلَ لهم من هذا السّؤال عن دعوة الرّسول ﷺ كما تنصّلوا من السّؤال عن إشراكهم بالله؛ إذ لم يجدوا مغالطة، لأنّهم لم يكونوا مسبوقين من سلفهم بتكذيب الرّسول، فإنّ الرّسولَ بُعثَ إليهم أنفسهم فوَجَموا[2]. وتفيدُ السببيّةَ كذلك؛ إذ تسبّبَ عن هذا السّؤال السّكوتُ؛ علمًا منهم بأنّه ليس عند أحدٍ منهم ما يغني في جوابه من حسن القول وصوابه، وأنّهم لا يذكرون شيئًا من المقال إلا عاد عليهم بالوبال، فقال مُتَرجِمًا عن ذلك: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[3]. أو تسبّبَ عن عمى الأنباء عنهم، أي فهم لانسدادِ الأنباء عليهم لم يجيبوا عمّا سُئلوا عنه: فيما أجبتم المرسلين؟ ولا يسألُ بعضهم بعضًا عنه؛ لانقطاعهم عن الحجّة فيه[4].

لا يسألُ أحدٌ منهم أحدًا عن الخلاص، لعلمهم بأنّ الهلاك قد عمّهم

علّة تقديم المسند إليه (هم) على الخبر الفعلي ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾:

في تقديمِ المسنَدِ إليه (هم) على خبره الفعلي ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ إبرازُ المسند إليه (هم) باعتبارهم محورَ الإخبار عنهم، وفيه دلالةٌ

نفيُ حصول التّساؤل خاصٌّ بالمشركين وهو ثابتٌ مؤكّدٌ واقعٌ لا محالة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 309.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 163.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 337.
(4) تفسير ابن فورك، ص: 362.

على تخصيصِ الخبر بالمشركين دون غيرهم، وعلى تحقّقِ الخبر وأنّه حاصلٌ لا محالة، وعلى تقويةِ الحُكم، وهو نفيُ حصول التّساؤل من أي أحدٍ منهم؛ وذلك لتكرارِ الإسناد؛ فكأنَّ الحكمَ هنا ذُكر مرّتين؛ مرّةً حين أُسند الفعلُ ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسند إلى ضميره العائد إلى المبتدأ (هم)، ولو تأخَّرَ المسنَدُ إليه فقال: (لا يتساءلون هم) لَما تحقّق هذا التّكرار. وكذلك في التّقديم تحوّلت الجملة إلى اسميّة فأفادتْ الثّبات والدّوام والتّأكيد.

معنى ﴿لَا﴾ في جملة ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾:

﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ نافيةٌ؛ نَفَتْ حصولَ التّساؤلِ من أيّ أحدٍ منهم؛ أي لا يسأل أحدٌ منهم أحدًا عن شيءٍ تحصلُ به نجاة؛ لعلمهم أنّه قد عمّهم الهلاك، ولات حين مناص، ولأنَّ كلًّا منهم أبغضُ النّاس في الآخر[1]. وإذا كانت الأنبياء لهولِ ذلك اليوم يتتعتعون في الجواب عن مثل هذا السّؤال، ويفوّضون الأمر إلى علم الله، وذلك قوله تعالى: ﴿۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: 109] فما ظَنُّكَ بالضُّلّالِ من أممهم؟![2]. وقد آثرَ البيانُ القرآنيّ النفيَ بـ﴿لَا﴾ دون (ما)؛ لأنّ ﴿لَا﴾ تخلّصُ المضارع للمستقبل، بينما (ما) تخلّص المضارع للحال، والحديثُ في الآية عن يوم القيامة، وهذا يناسبه استعمال ﴿لَا﴾ دون (ما).

نفيُ التّساؤل بين المشركين يوم القيامة للبغض بينهم ولتيقّنهم بالهلاك

دلالة التّعبير بالتّساؤل مادةً وصيغةً:

التّعبير بالتّساؤل وهو من صيغ المفاعلة في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ يُشعرُ بزيادة حيرتهم وفَرْطِ دهشتهم، فهم جميعًا قد صاروا في حالةٍ من الإبلاس والحيرة، جعلتهم يتساوون في العجز

تصويرُ حالةِ عدم التّساؤل بين المشركين النّاشئة عن حيرتهم وعجزهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 337.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 427.

والجهل[1]، والمعنى: لا يسألُ بعضهم بعضًا كما يتساءل النّاس في المُشْكِلات؛ لأنّهم يتساوون جميعًا في عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب[2]؛ لأنّ اللّهَ أدحضَ حُجَّتَهم، وكلّل ألسنتهم[3]، أو ليقينهم جميعًا أنّه لا حجّة لهم، أو لا يسألُ بعضُهم بعضًا بالأنساب والأرحام؛ ليقينهم بألّا حيلةَ لكلّ واحدٍ منهم ولا مكانة[4].

وفي مجيء الفعل بصيغة المضارع المنفي تصويرٌ لحالةِ عدم التّساؤل بينهم النّاشئة عن حيرتهم ودهشتهم، التي جعلتهم يتساوون في العجزِ والجهل، وبيانٌ لاستمرارِ هذا العجز والجهل منهم باستمرارِ عدم التّساؤل من جميعهم.

غرض حذف متعلّق ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

في الحذف اختصارٌ وإفادةٌ للعموم

لم يذكرِ البيانُ الإلهيّ ما الذي لا يتساءلُ المشركون عنه في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ اختصارًا؛ لدلالة المقام عليه، والتّقدير: (لا يتساءلون عن شيءٍ تحصل به نجاتهم)[5]. أو أنْ يكون المتعلّقُ هو بالأنساب؛ لدلالة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: 101][6]، أي لا يتساءلون بالأنساب؛ لأنّهم قد أيقنوا أنّ كلّهم لا حيلةَ له ولا مكانة[7].

أو أنْ يكونَ غرضُ الحذفِ إفادةَ عموم المتعلّق، ولهذا تعدّدتْ أقوالُ المفسّرين فيه؛ أي: لا يسألُ بعضهم بعضًا عن الحجج[8]، أو عن العذرِ الذي يعتذرُ به في الجواب[9]، أو لا يسألُ بعضهم بعضًا أنْ

(1) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 430.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 427.
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 17/ 436.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 295.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 188.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 295.
(8) الواحدي، التّفسير البسيط: 17/ 436.
(9) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 653، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

يحملَ ذنوبه عنه[1]، أو لا يسألُ بعضهم بعضًا عن الأخبار، أو لا يسأله عن حاله؛ لشغله بنفسه[2]، أو لا يتساءلون عن شيءٍ، فقد سكتوا[3].

معنى (الفاء) في قوله ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾، وموقع الجملة:

تفريعٌ للتَّرغيبِ على التَّوبيخِ فما زالَ في الوقتِ فسحةٌ للتَّوبةِ

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ للتّفريعِ على ما أفادَه قولُه: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ مِنْ أنَّهم حَقَّ عليهم العذابُ؛ أي فرَّعَ بذكرِ حالِ الفريق المقابلِ لفريقِ الكافرين، وهو فريقٌ من آمن منهم وتاب وعملَ صالحًا؛ زيادةً في بيانِ حالِ الكافرين؛ لأنَّ الأحوال تزدادُ تميّزًا بذكرِ أضدادِها[4]، وترغيبًا لهم بالإيمان والإقلاع عن شركهم. والحاصل أنّ التّفريع للتَّرغيبِ على التّوبيخِ؛ ففي الوقتِ الذي يبلغُ الكربُ ذروتَه بالمشركين، يتحدّثُ القرآنُ عمن تابَ وآمنَ وعملَ صالحًا، وما ينتظرُه مِنَ الرّجاءِ في الفلاحِ، ولمنْ شاءَ أنْ يختارَ، وفي الوقتِ فسحةٌ للاختيارِ.

معنى (أمّا) في الآية:

شرطٌ يُعلّقُ الفلاحَ على التَّوبة وتفصيلٌ يومئُ بعدمِ فلاحِ غيرِ المؤمنين

(أمّا) في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ حرفُ شرطٍ وتفصيلٍ[5]، أمّا الشَّرط فيفيد تعليقَ وقوعِ الفلاح على التَّوبةِ والإيمانِ والعملِ الصالحِ، وأمّا التَّفصيل - وهو: التَّفكيكُ والفَصْلُ بيْنَ شَيئَين أو أشياءَ في حُكمٍ - فإنّه يفيدُ هنا أنَّ غيرَ المُؤمنينَ خاسِرونَ في الآخرةِ، وذلكَ ما وقَعَ الإيماءُ إليه في الآية التي قبلها بقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ فإنّه يكتَفي بتَفْصيلِ أحدِ الشَّيئينِ عن ذِكْرِ مُقابِلِه[6]، أي: وأمّا من لم يتبْ ويؤمنْ ويعملْ صالحًا فلنْ يكونَ من المفلحين.

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 290.
(2) الماوردي، النّكت والعيون: 4/ 262.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 607.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 163.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 365.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 163.

دلالةُ التَّعبير بالتَّوبة وصياغتها ماضيةً في ﴿تَابَ﴾:

رحمةُ اللهِ سبقتْ غضبَه والتّوبةُ تجبُّ ما قبلَها مِنَ الذّنوب

عبّر النّظمُ الحكيمُ بلفظِ التَّوبة دون غيرها كالأوبةِ والإنابةِ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾؛ لكونِه أنسبَ للسّياق؛ إذِ الحديثُ عن الشِّرك، وعنْ تحسّرِهم وندمِهم بسببِ كفرهم يومَ لا ينفعُهم ذلك، والتّوبةُ في اللغةِ لا تكونُ إلا مِنْ ذنبٍ[1]، أمّا الأوبةُ والإنابةُ فلا يشترطُ أنْ تكونا بعْدَ ذنبٍ، وقد مُدح بهما الأنبياء، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: 75] وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: 17]، ومن ثَمّ فذِكْرُ التوبة دون غيرها شرطًا للفلاح، وهي التي سُبقتْ بذنبٍ هو هنا الشرك، دليلٌ على رحمةِ اللّه تعالى وفضله؛ فهو يُبدّل السيئات حسنات، فرحمته سبقتْ غضبه، وفي هذا ترغيبٌ للكافرين بالتّوبة أيّما ترغيب.

الفلاحُ متوقّفٌ على تحقّقِ التوبة من التائب

والتّعبيرُ بصيغة الماضي؛ لبيانِ تحقّقِ التَّوبة مِن التّائبين بالإقلاع عن الشِّرك والنّدم على تقلّده والعزم على عدمِ العَودِ لمثله، أيْ تحقّقتْ بجميعِ شرائطها، فصيغةُ المُضيّ تنبئُ عن كون تحقّقِ التّوبة من التّائب شرطًا ليكون من المفلحين، وهي بمنزلةِ التّأكيدِ لسببِ كونهم مِن المفلحين.

نكتة حذف متعلّق التّوبة:

التَّوبةُ لا تكونُ إلا عن ذنبٍ وذنبُهُمُ الشّرك

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ متعلّق ﴿تَابَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾؛ اختصارًا؛ للعلمِ به؛ إذ السّياقُ كلّه حديثٌ عنه، والتّقديرُ: (فأمّا من تابَ عن الشّرك والكفر، ورجعَ عمّا كان عليه، وندمَ على تقلّده، فهو من المفلحين)[2].

جمعٌ بين الإقلاعِ عن عقائدِ الشِّركِ وبين التزامِ عَقائدِ الإسلامِ

معنى (الواو) في قوله ﴿وَءَامَنَ﴾:

الواو في ﴿وَءَامَنَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله: ﴿فَأَمَّا مَن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (توب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 163.

﴿تَابَ﴾؛ إذْ عطَف الإيمانَ على التَّوبةِ وهي الإقْلاعُ عن الشِّركِ، والنَّدَمُ على تقَلُّدِه؛ لأنَّ المَقصودَ حُصولُ إقْلاعٍ عن عقائدِ الشِّرْكِ، وإحْلالِ عَقائدِ الإسلامِ مَحلَّها بالإيمان[1].

أو ليكون العطفُ بالإيمانِ تصريحًا بما عَلِمَ التزامًا، فإنَّ الكفرَ والإيمان ضدّان، لا يمكنُ ترك أحدهما إلا بأخذِ الآخر[2].

تـصـريـحٌ بـما التزمَ به التّائبُ من الإقـلاعِ عن عقيدةِ الشّرك

دلالة التَّعبير بالإيمان في ﴿وَءَامَنَ﴾ مادةً وصيغةً:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿وَءَامَنَ﴾ دون غيره كالتّصديق أو الإسلام؛ لكونِه أنسبَ مع السّياق؛ وهو حديثٌ عَن كافرين أشركوا مع الله آلهةً مزعومة، وعَن مؤمنين أقلعوا عن الشّرك وآمنوا بالله اعتقادًا وقولًا وسلوكًا، وأخلصوا لله الألوهيّة، وأفردوا له العبادة[3]؛ إذِ الإيمانُ أخصُّ من التّصديق؛ فالإيمانُ يقابله الكفر[4]، ولا يُستعملُ إلا في الخبرِ عن غائب[5]، ويتضمّن مع التّصديق معنى الأمن والأمانة[6] والسّكونِ والطّمأنينة[7]، وهو في الشّرعِ إقرارٌ باللِّسانِ، واعتقادٌ بالقَلْبِ، وعملٌ بالأركان[8]. والإيمانُ كذلك أخصُّ من الإسلام، وأرفعُ منه بدرجة؛ فالإيمانُ يشاركُ الإسلام في الظّاهر، والإسلام لا يشاركُ الإيمان في الباطن[9]، أي لا بدّ للتّائبين حتى يكونوا من المفلحين أنْ تتحقّق فيهم المعاني السّابقة للإيمان.

لا بـدّ للتّائبين حتى يكونوا من المـفـلـحـين من الـتـحـقّـق بـكـلّ معاني الإيمان

وآثرَ التَّعبير بصيغة الماضي دون المضارع، فلم يقل: ويؤمنُ؛ لبيانِ تحقّقِ معاني الإيمان لدى المؤمنين، فهي إخبارٌ عن إيمانٍ

إخبارٌ عن إيمانٍ مـتـحـقّـقٍ ممن أقلعَ عن الشّرك يؤكّد فلاحه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 163.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 608.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أمن)، (صدق).
(5) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 7/ 291.
(6) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمن).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمن)، والعسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 53.
(8) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 418، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمن).
(9) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 317 - 320.

متحقّقٍ ممن أقلعَ عن الشّرك، لا إخبارٌ عن تجدّدِ ذلك منهم، فهي بمنزلةِ التَّأكيد لسببِ كونهم من المفلحين.

نكتة حذف متعلّق ﴿وَءَامَنَ﴾:

التّعبير عن المتحقّقِ الموجود أبلغُ من الإنشاء لطلبِ المقصود

حُذفَ متعلّق الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَءَامَنَ﴾، فلم يذكرْ بماذا آمن؛ للعلم به؛ فإنّ متعلّق الإيمان كان معروفًا عند المخاطبين، أي جرى متعلَّق الإيمان مجرى الاصطلاح العُرفيّ، فإنْ قيل: وآمن؛ عُلم المقصود من المحذوف، وهو جميع أركان الإيمان دون تخلف أيٍّ منها، وهذا أبلغُ من ذكرها.

معنى (الواو) في ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾:

تنبيهٌ على فضيلةِ العمل الصالح والعناية به عبارةً وإشارةً

الواو في ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله: ﴿وَءَامَنَ﴾؛ إذ عطَفَ العملَ الصالح على الإيمان؛ من باب عطفِ الخاص على العام؛ تنبيهًا على فضيلةِ العملِ الصالح، وتحذيرًا من التّهاون فيه، بذكره مرّتين عبارةً وإشارةً، وللتّأكيدِ على أنّ "مَنْ جَمَعَ بين الإيمانِ والعملِ الصّالحِ فليطمعْ في الفلاح"[1]؛ ولأنَّ بعضَ أهْلِ الشِّرْكِ كانوا شاعِرينَ بفَسادِ دينِهم، وكان يصدّهم عن تقلّد شعائر الإسلام أسبابٌ مغريةٌ من الأعراض الزّائلة التي فُتِنوا بها[2]، فعَطْفه تأكيدًا لأهميّة العمل الصّالح، ولكونِ العملِ الصّالحِ تصديقًا لدعوى الإيمان باللسان[3].

دلالة التّعبير بالعمل في ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾:

العملُ أوسعُ دلالةً من الفعل وأنسبُ لما يتطلّبه الإيمانِ والتّوبة والفلاح

آثر البيانُ القرآنيّ التَّعبير بلفظِ العمل دون الفعل فقال: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، ولم يقل: وفعل صالحًا؛ لكونِ العملِ أوسعَ دلالةً من الفعل؛ فهو يشملُ القول والفعل والنيّة، أي يشملُ كلّ ما يصدر من الإنسان

(1) الإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن: 3/ 260.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 163.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.

من عمل اللسان والجوارح والقلب، ولو عبّر بالفعل لم يشملِ العملَ المطلوب من المؤمن إلا ما قامتْ به جوارحه فقط. وهذا لا يصحّ، إضافةً إلى مناسبةِ لفظِ العمل للسّياق؛ فقد عُطِفَ على إيمانٍ وتوبةٍ ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾، وهما يقومان على قَصْدٍ ورويّةٍ وعقلٍ وتفكيرٍ واستمرارٍ وطولِ زمانٍ، وهذه المعاني يدلُّ عليها معنى العمل في اللغة؛ فالعملُ يكون من عاقل وعن قصدٍ[1]، فلا يُقال إلا في ما كان عن فكرٍ ورويّةٍ، ولما تكَرَّرَ وطالَ زمَنُه واستَمَرَّ[2].

نكتة الاكتفاء بالوصف ﴿صَٰلِحًا﴾ عن الموصوف (عملًا):

المقصودُ من العملِ هو صلاحُه لا مجرّدَ العمل

حُذِفَ الموصوفُ (عملًا) ونُزّلتِ الصّفةُ ﴿صَٰلِحًا﴾ منزلتَه في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ إذِ التّقديرُ: وعمل عملًا صالحًا، والقرينةُ على تعيينِ المحذوف هي فعل ﴿وَعَمِلَ﴾، ونكتةُ الحذف الإيجاز، والتّنبيهُ على أهميةِ الصّلاحِ والعنايةِ به نيةً وعملًا، وأنّ الصّلاحَ هو المقصودُ من العمل، لا مجرّد العمل.

نكتة الجمع والتّرتيب بين الأفعال ﴿تَابَ﴾، ﴿وَءَامَنَ﴾، ﴿وَعَمِلَ﴾:

لا سبيلَ للفلاح إلا لمن جمع بين التّوبة والإيمان والعمل الصالح

جمَعَ البيانُ القرآنيُّ بين الأفعالِ الثّلاثة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لكونها سبيلًا للنّجاةِ بمجموعها؛ إذ لا نجاةَ إلا لمن اتّصفَ بالتّوبة من الشّرك والمعاصي، وآمنَ باللّه فعبدَه، وآمنَ برسله فصَدَّقَهم، وبجميع أركان الإيمان، وعَمِلَ عملًا صالحًا خالصًا للّه متّبعًا فيه للرّسلِ، فَعَسَى أنْ يَكونَ مَن جمعَ هذه الخصال مِنَ النّاجحين بالمطلوب، النّاجينَ من المرهوب، فلا سبيلَ إلى الفلاح بدون هذه الأمور[3].

تقديمُ التّخلية على التّحلية من أهمِ قواعد تربية النّفس

وأمّا نُكتةُ ترتيب هذه الأفعال بتقديمِ التوبةِ على الإيمانِ والإيمانِ على العملِ الصالح؛ فتكمُنُ في تقديمِ التّخليةِ على التّحليةِ؛ فالتّوبةُ

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 666، والزّبيدي، تاج العروس: (فعل).
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 622.

هي إقلاعٌ عن الشّرك، وهذا يكون أولًا، ويعقبهُ الإيمانُ مباشرةً، وهو إحلالُ عقائدِ الإسلام محلّ عقائدِ الشّرك، ومن ثمّ يعقبهم العملُ الصّالح الذي يؤكّد صدْقَ التّوبةِ ويصدّقُ دعوى الإيمان، ويكون سببًا في الحفاظِ على التّوبة وعلى العمل الصالح.

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾:

(الفاء) في قولِه ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ حرفُ عطْفٍ، يتضمّنُ معنى السّببيّة، إذ إنّ حالَ ﴿مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ سببٌ في أنْ يفوزَ بوعدِ اللّهِ، بأنْ يتحقّقَ له الفلاح، باعتبار (عسى) للتّحقيقِ، أو أنْ يكون حالهُ المذكور – مع ما يعتري النّفسَ من النّزوعِ إلى النّقائص ممّا يستدعي عظيمَ المجاهدة – سببًا في أنْ يكون مِنَ المفلحين[1].

التّوبةُ والإيمانُ والعملُ الصّالحُ سببٌ في الفوزِ بوعدِ اللهِ

دلالةُ التّعبير بالفعل (عسى):

(عَسَى) في قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ إمّا للتّحقيقِ على عادةِ الكرام واللّه أكرمُ الأكرمين، قال الفرّاء: "وكلُّ شيءٍ في القرآنِ من (عَسَى) فذُكِرَ لنا أنّها واجبةٌ"[2]، وفي هذا بشارةٌ للمسلمينَ على الإسلام وترغيبٌ للكافرين على الإيمان[3]، وزجرُهم عن الثّباتِ على الكفر[4]، وإنّما لمْ يقطع له بالفلاح؛ إيذانًا بأنّه لا يجب عليه لأحدٍ شيء، وأنّ كلَّ إحسانٍ يفعلُه، فإنّما هو على سبيلِ الفضلِ[5]، وليدومَ حَذَرُ هذا المؤمنِ التّائبِ، ويتّقي قضاءَ اللّهِ وقدرَه[6].

في التّحقيق يكمُنُ الفلاح للتّائبين من أكرم الأكرمين

أو أنْ تكونَ للتَّرجّي مِنْ قِبَلِ التّائبِ، بمعنى: فلْيَتَوَقَّعِ الفلاح، وليترجاهُ وليطمعْ به؛ فهي تَرَجٍّ لتَمْثيلِ حالِهم بحالِ مَنْ يُرجى

في التّرجي إشارةٌ إلى صعوبةِ الاستمرارِ على طريقِ الهدى إلا بعظيمِ المجاهدة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.
(2) الفراء، معاني القرآن: 2/ 309.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 654، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 320.
(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 15/ 281.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/ 11.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.

منه الفَلاحُ[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى صعوبةِ الاستمرارِ على طريقِ الهدى إلا بعظيمِ المجاهدة؛ لأنّ النّفسَ نزّاعةٌ إلى النّقائص، مسرعةٌ إلى الدّنايا[2]. وفيه تعليمٌ للمؤمنين الأدبَ في القول حتى لا يجزموا في أمرٍ يتعلّقُ بالمستقبل، ولا سيما ما يتعلّقُ بالمصير يومَ القيامة، وخاصّة أنّه قدْ ورد أنّ المؤمنَ لا يدخلُ الجنَّة بعمله، وإنّما برحمةِ الله وفضلِه، قال ﷺ: «ما مِنْكُمْ أَحَدٌ داخِلُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قيلَ: ولا أَنْتَ يا رَسولَ اللّه؟ قالَ: «وَلا أنا، إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللّه بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ»[3].

أو أنْ يكون المعنى: عسى أنْ يكونوا كذلك إنْ داموا على التّوبة والإيمان؛ لجوازِ أنْ لا يدوموا[4].

معنى ﴿أَن﴾ في جملة ﴿أَن يَكُونَ﴾:

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ حرفُ مصدرٍ ونصب، وهي والفعل بعدها مصدر مُؤَوَّلٌ في محلّ رفع خبر (عسى) عند من عدّها فعْلَ ماضٍ جامدًا[5]، والتّقدير: (فعسى هو كونَه من المفلحين)، وفي محلِّ رفعٍ فاعل عند من عدّها فعلًا تامًّا[6]، والتّقدير: (فعسى كونُه من المفلحين).

زيادةُ توكيدٍ لفلاحِ من تابَ وآمنَ وعملَ صالحًا

وقد آثرَ البيانُ القرآني التّعبير بالمصدر المؤَوَّل دون المصدر الصّريح (كونه)؛ ليُتيحَ صلاحيةَ الكلام لإفادةِ اعتبارٍ من شأنِه أنْ يقوّيَ المعنى، ويزيدَ توكيده، وهو فلاحُ من تابَ وآمنَ وعملَ صالحًا بجعله متجدّدًا، فالمصدرُ المؤَوَّلُ هنا جعلَ الكلام صالحًا لدخولِ

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 427، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 164.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.
(3) مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة ﷺ، رقم: 10123.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 10.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 365، ودعاس، إعراب القرآن: 2/ 439.
(6) أحمد الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 3/ 902.

الفعل المضارع ﴿يَكُونَ﴾ على الجملةِ بما أعطاها من التجدّدِ والحدوث والاستمرار المستفادِ من الفعل، ولو وُضِع الاسم (كونه) بدلَ الفعلِ لفاتَ هذا الاعتبار.

دلالة التّعبير بالكون المضارع ﴿يَكُونَ﴾:

دلّ التّعبيرُ بالكونِ المضارع في قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ على التّأكيدِ على ثبوتِ فلاحِ من تابَ وآمنَ وعملَ صالحًا، ودوامِ هذا الفلاح، والمعنى: يتحقّقُ لمنْ أقلعَ عن الشّرك وصرّح بالإيمان والعملِ الصّالح أنْ يَكونَ من المفلحين كونًا هو في غايةِ الثّبات والاستمرار[1]، وفي هذا تبشيرٌ للمؤمنين بتحقّق الفلاح من اللّهِ سبحانه.

مَنْ تحقّقَ بالتّوبةِ والإيمانِ والعملِ الصّالح تحقّقَ له فلاحٌ في غايةِ الثّباتِ والاستمرار

معنى ﴿مِنَ﴾، ودلالة (أل) في ﴿مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ حرفُ جرّ، يفيدُ التّبعيض، ودخولُها على لفظ ﴿ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ أشَدُّ في إثباتِ الفَلاحِ من قوله: (أنْ يُفْلِحَ) أو يكون مفلحًا؛ لأنَّه يُفيدُ أنَّهم من جُملةِ المفلحينَ وزُمَرَتِهم[2]؛ لأنّ التّعريفَ في ﴿ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ تعريفُ الجنس، فالإخبارُ عن التّائبين بأنّهم من المفلحين يفيدُ أنّهم من أفرادِ هذه الفئة التي تُعرفُ بفئةِ المفلحين؛ ولأنّ هذه الصّيغةَ ﴿مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ من قِبَلِ الكنايةِ التي هي إثباتُ الشّيء بإثباتِ ملزومه، وهي أبلغُ من التّصريح؛ لأنّ فيها شهادةً على أنْ يكون معدودًا في زمرتهم، معروفًا بأنّه منهم.

المبالغةُ في إثباتِ الفلاح للمؤمنين بعدِّهم من زمرةِ من عُرِفوا بالفلاح

دلالة التّعبير بمفردة الفلاح:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الفّلاحَ دونَ غيرِه في قوله: ﴿ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾؛ مناسبةً للسّياق، ومبالغةً في التّرغيب في التّوبةِ، والنّدمِ والإقلاعِ

من اتّصفَ بالتّوبةِ والإيمانِ والعملِ الصالح حريٌّ به أنْ يجمعَ خيري الدّنيا والآخرة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 164.

عن الكفرِ، والاتّصافِ بصفاتِ الكمالِ من التّوبةِ وصدقِ الإيمان والعملِ الصالح؛ لأنّ لفظَ الفلاح أجمعُ وأبلغُ من غيره؛ فلا يوجد كلمةٌ أجمعُ من لفظَةِ الفلاحِ لخيرَيِ الدُّنيا والآخِرَة[1]، فالفلاحُ هو نيلُ الخَيْر والنّفعِ الباقي أثَره، ويُقال لمنْ تكاملتْ فيهِ خلالُ الخَيْر: قد أفْلح[2].

سِرُّ التعبير باسم الفاعل المجموع في قوله ﴿ٱلْمُفْلِحِينَ﴾:

من كمالِ نعيمِ الفلاحِ الثّبوتُ عليه والتمكّن فيه

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ باسم الفاعل ﴿ٱلْمُفْلِحِينَ﴾، ولم يقلْ: (أنْ يكون من الذين أفلحوا)؛ لِما تفيده صيغةُ اسم الفاعل من الدَّلالةِ على الثّبوت على الفلاح والتمكّن فيه، حتى صارَ وصفُ الفلاح لَهم شِعارًا يُعرفون به، وخاصّةً أنّه جاء في سياقِ جملةٍ اسميّةٍ تدلّ كذلك على الثّبوتِ والاستقرار، وهذا بخلافِ التّعبير بالفعل الماضي (أفلحوا) فإنّه لا يدلّ على ذلك، وإنّما يدلّ على الوقوع والتحقّق.

السّعيُ في تحصيل مقام الفلاح يُؤذِنُ بأفضليّته

وآثر كونه مجموعًا للدّلالة على كثرةِ المفلحين، وبيانِ فضيلةِ الفلاح حتى سعى الكثيرون إليه، بما يكون ترغيبًا للكافرين في الانضمام إليهم. وفي الجمع كذلك تناسبٌ مع السّياق الذي وردَ بصيغة الجمع: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ و﴿عَلَيْهِمُ﴾، و﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ و﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾. وفيه أيضًا مراعاةٌ للفاصلةِ الغالبةِ التي تنتهي بالياء والنّون أو الواو والنّون.

دلالة حذف المقابل التّفصيليّ:

الاهتمام بفريق المؤمنين المفلحين والتّرغيب بأسبابِ فلاحهم

مقابلُ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ محذوفٌ، ويمكن أنْ يُقدَّرَ بعْدَ لفظةِ المفلحين، والتّقديرُ: (وأمّا منْ لم يتبْ ويؤمنْ ويعملْ صالحًا فهم في النّار خالدون)، أو أنْ يُقدّر قبله، والتّقديرُ: (هذا حالُ هؤلاء، فأمّا من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصّحاح، والزبيدي، تاج العروس: (فلح).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 211.

تابَ وآمنَ وعملَ صالحًا فعسى أنْ يكون من المفلحين)، وذلك لأنّ قوله ﴿فَأَمَّا﴾ أداةُ تفصيلٍ تَفْصِلُ بين شيئين في حكمٍ، فلمّا ذكر أحدهما فُهم الآخر، وهو أنَّ غيرَ المؤمنين خاسرون في الآخرة. وفي هذا اختصارٌ يومئُ إلى الاهتمام بفريقِ المؤمنين المفلحين، والتّرغيبِ بالتّوبة والإيمان والعملِ الصّالح، والاستخفافِ والإبعادِ لفريقِ الخاسرين والتّحقير والتّنفير من الشّرك والكفرِ وفسادِ الأعمال.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإجابة والطاعة:

الإجابةُ مراجعةُ الكلامِ موافقةً أو مخالفةً، والطاعةُ موافقةٌ وانقيادٌ وامتثال

الإجابةُ: مُراجَعَةُ الكَلام، تَقولُ: أجابَه عَنْ سُؤاله، والتّجاوب: التّحاوُرُ[1]، وقد تكون الإجابةُ بالموافقة، وقد تكون بالمخالفة، فالإجابةُ: أعَمُّ من القبول؛ لِأَنَّهُ عبارَة عَن قطع سُؤال السّائِل؛ والقطعُ قد يكون بترتيب المَقْصود بالسّؤال، وقد يكون بِمثل: (سَمِعت سؤالك وأنا أقْضي حاجَتك)[2]. والإجابة تكون مع الأدعيةِ، يُقالُ: أجابَ دعاءه[3]، والإجابةُ من العبدِ للّه الطّاعةُ، فإذا كانت إجابةً بالقلب واللسان؛ فذاك هو الإيمانُ، وإجابةُ اللّهِ لعبده إعطاؤه إيّاه مطلوبه، لأنّ إجابةَ كلّ شيء على وفْقِ ما يليقُ به[4]. وأمّا الطّاعَة: فهيَ الموافقَة لِلْأَمْرِ، وهي الانقيادُ والامتثالُ، وأكثرُ ما تُقال في الائتمار فيما أمر، والارتسام فيما رسم[5]، والطّاعةُ تكون من الأدنى للأعلى. وناسبَ التّعبير هنا بالإجابة دون الطّاعة؛ لكونِ السّياقِ في توبيخِ الكفّار وتقريعهم يومَ القيامة، وذلك من خلال سؤالهم: ماذا كان جوابكم لمن أُرسلَ إليكم من المرسلين الذين دعوكم إلى عبادةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (جوب).
(2) الكفوي، الكلّيّات، ص: 51.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 419.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/ 226.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 583.

اللّه تعالى، وهل وافقتم أو خالفتم؟ وليس السّؤالُ عن طاعتهم لهم، فهم لم يؤمنوا بهم أصلًا.

التّوبة والأوبة والإنابة:

المغفرةُ من الشّرك تستدعي تركَ الذّنبِ لقبحهِ مع النّدمِ والعزمِ على عدمِ المعاودة

التوبةُ: تختصُّ بالرّجوعِ إلى اللّهِ بعد ارتكابِ ذنبٍ، وبالرّجوعِ عَنِ المَعْصيةِ إلَى الطاعةِ[1]، والتَّوْبَةُ في الشّرعِ تكونُ مع شروطٍ معيّنةٍ؛ وهي تركُ الذّنْبِ لقبحه، والنّدمُ على ما فرّط، والاستغفارُ، والعزيمةُ على تركِ المعاودة، وتداركِ ما أمكنه أنْ يتداركَ من الأعمال[2]. والتَّوْبُ: تركُ الذّنْبِ على أجملِ الوجوه، وهو أبلغُ وجوه الاعتذار. وأمّا الأوبة: فدلالتها أوسعُ؛ إذ هي رجوعٌ إلى اللّه، ولا يُشترطُ أنْ يكونَ الرجوعُ بعد ذنبٍ، ورجلٌ أوّابٌ: كَثيرُ الرُّجوعِ إلى حضرةِ اللّه تَعالَى، وتدلّ أيضًا على العودةِ إلى الأصلِ والحالة الأولى؛ فكلُّ شيءٍ رَجَع إلى مَكانِه فقد آبَ. ومن معاني الأَوْبُ: رجوعُ الشّيء إلى مستقرّه، والقَصْدُ والعادَةُ والاسْتِقامَةُ[3]. وأمّا الإنابةُ: فهي أبلغُ من التّوبةِ ومن الأوبةِ؛ إذ تختصُّ بالقربِ من اللّه تعالى، والرّجوعِ إليه مرّة بعد أخرى، ودوامِ الإقبالِ عليه، وعدمِ الخروج عن شيءٍ من أمره، وإخلاصِ العمل له[4]. وقد عبّر هنا بالتّوبة؛ لكونِ السّياقِ في سؤالِ المشركين عن شركهم يومَ القيامة، وهذا من أعظمِ وأقبحِ الذّنوب، ويُشترطُ للمغفرة منه النّدمُ والاستغفارُ والعزمُ على عدمِ الرّجوع لهذا الذّنْب، وتداركِ ما أمكنه من أعمالٍ، وهذه هي معاني التّوبة.

الفلاح والفوز:

الفلاحُ فوزٌ ونجاةٌ مع بقاءٍ في النّعيم وهو ما يستحقّه المؤمنون في الآخرة

الفلاحُ أجمعُ وأوعبُ وأبلغُ من الفوز؛ إذ الفلاحُ هو الفوزُ والنّجاةُ والبقاءُ في النّعيم والخير، وليس في كَلامِ العَرَب كلِّه أجمعُ من لفظَةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (توب).
(2) الراغب، المفردات: (توب).
(3) الزّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أوب).
(4) الزّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نوب).

الفلاحِ لخيرَي الدُّنيا والآخِرَة[1]، فالفلاحُ هو نيلُ الخَيْر والنّفع الباقي أثَره، ويُقال لمَنْ تكاملتْ فيهِ خلالُ الخَيْر قد أفْلح[2]. بينما الفوزُ: هو الظَّفَرُ بالخَيْر والأُمنية، والنّجاةُ من الشّرّ، يُقالُ: فازَ بِالخَيْرِ وفازَ مِنَ العَذابِ[3]، فالفوزُ هو حصولُ السّلامة والنّجاة من الشّرّ مع الظّفر بالخير[4]، فهو فكّ القيود للوصولِ إلى المحبوب[5]. وإيثارُ التّعبير بالفلاح في الآية دون الفوز؛ لأنّ من تابَ وآمن وعملَ عملًا صالحًا فقد تكاملتْ فيه خلالُ الخير، فاستحقَّ أنْ يكونَ مفلحًا، وأنْ يفوزَ بالنّعيمِ الأبديّ وهو الجنّة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (فلح).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 211.
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فوز).
(4) الرّاغب، المفردات: (فوز).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 210.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»